﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

[الفرقان: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دَحـضٌ مُفحِمٌ لـلأضـالـيـلِ، ورسالةُ طُمأنينةٍ للرّسول

لمّا استقصَى البيان القرآني أكثرَ معاذيرِهم وتعلّلاتِهم واعتراضاتِهم، وأبطَلَ شبهاتِهم وأضاليلَهم، وألقَمَهم أحجارَ الرّدِّ إلى لهَواتِهم؛ عطفَ على ذلك فذلَكةً جامعةً تَعُمّ ما تَقدّم وما عسى أن يأتوا به منَ الشّكوكِ والتّمويهِ، بأنّ كلّ ذلك مدحوضٌ بالحُجّة الواضحة الكاشفة لتُرَّهاتِهم، وأنّ القرآنَ الكريمَ سيظلّ سلاحًا قاطعًا ضِدَّ باطلهم، يدمغُه ويُظهرُ زيفَه، ليُطَمئِنَ قلبَ نبيّه ﷺ ويُثبِّتَه، ووعدًا له بالنّصرِ والتّأييدِ الدّائم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَثَلٍ﴾: (مثل) مناظَرةُ الشّيء، وجمعُه: أمثال، ومعنى المَثَل: "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدْر ونحوه، حتّى في المعنى، ويُقال: ما لهذا مثيلٌ، والمِثال: ما جُعِلَ مِقدارًا لغيره، وجمعُه: مُثُل"[2]، والمَثَل يأتي بمعنى الحديث والخَبَر، وضَرْبُ المَثَلِ: جَعْلُه يسير في البلاد، من قولك: ضرَبَ في الأرض: إذا سار فيها[3]، ومعنى المَثَل في الآية: أنّهم يطرَحون عليكَ أسئلةً غريبةً، كأنّها اختبارٌ لنُبوّتِكَ، محاولينَ بذلك إثباتَ بُطلانِها، والقَدْحَ فيها[4].

2) ﴿تَفْسِيرًا﴾: (فسر) معناه البيان والتّفصيل، والفَسْر: كَشْفُ المُغَطّى، ومن معانيه المتعلّقة باللّفظ: أن يَكْشِفَ عنِ الألفاظ

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(2) الخليل، العين: (مثل).
(3) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والعسكريُّ، الوجوه والنّظائر: (مثل).
(4) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 4/ 124.

المُشكِلة وبيانها، والتّفسيرُ قد يُقال فيما يَختصّ بمُفردات الألفاظ وغريبِها، وفيما يختصّ بالتّأويل، وأيّة ترجمةٍ عن حال شيءٍ يُسَمّى تفسيرًا له[1]، ومعناه المِحوريّ: أن تَكْشِفَ ما في أثناء الشّيء بصَفائِه وشفافيّته، ويُعَدّ التّفسيرُ بمنزلة كشفٍ لخفايا النّصّ، حيثُ يُظهِر معانيَهُ وُضوحًا، ويُزيلُ عنهُ الغُموضَ؛ فهو لا يَقتصِر على بيان المعاني المباشِرة للعبارات فحسب؛ بل يشمل أيضًا كشفَ أسرارِها ودَلالاتِها العميقة[2]، ومعنى التّفسير الموصوفِ بالحُسْن في الآية: أنْ نُؤْتِيَكَ مِنَ البيان والكشف أحْسَنَه بما يُزيلُ إشكالَهم، وما يَحِقّ لكَ في حِكْمَتنا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تأييدٌ ربانيٌّ للرّسولِ الكريمِ، ودَحْضٌ مُفحِمٌ لشُبُهاتِ أهلِ الكفرِ الباطلةِ

أيْ: لا تلتفتْ أيُّها الرّسولُ الكريمُ إلى مُقترَحاتِ المشركين وأباطيلهم، وبَلِّغ ما أنزلناه إليكَ، فإنّهم لا يأتونك بكلامٍ عجيبٍ هو مَثَلٌ في البُطلانِ والتّهافتِ والفسادِ، يريدون به القدْحَ والطّعنَ في نُبوَّتِكَ، وصدقِ الكتاب الَّذي جِئْتَ به، إلّا جئناكَ في مُقابلته بالجوابِ الحَقِّ الثّابتِ الصّادقِ، والبيانِ الواضحِ، والقَولِ الفَصْلِ الَّذي يُثبت صِحّة الإسلام، ويَدْحَض شُبُهاتِهم الباطلةَ، وبما هو أحسنُ تفسيرًا وبيانًا من مَثَلِهم وشُبهاتِهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودَلالتُها في صَدْر الآية:

المواصَلةُ في دَحْضِ أباطيلِ المُشركين ومُغالطاتِهم وتضليلِهم

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يجوز أن تكون استئنافيَّة[5]، ويجوز أن تكون عاطفةً على ما سَبَقها من اعتراضِهم

(1) الهرويّ، كتاب الغريبَيْن في القرآن والحديث، والرّاغب، المُفَرَدات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فسر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسر).
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 25.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 216، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 12، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 194.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 483.

بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]؛ لأنّ التّقدير: قد بَطَل ما أَتَوا به من الاعتراض في إبطال أمرك من خِلال حُجَجٍ واهيةٍ، يُخيِّلون بها للضّعفاء أنّها قويّةٌ مُقنِعةٌ، ويَبذُلون جَهدًا كبيرًا في تنميقِ هذه الحُجج وتحسينِها وتدقيقِها، حتّى تصبحَ في نظرهم غايةَ الحُسْنِ والرّشاقةِ لفظًا ومعنًى[1]، فقد عطَفتِ الواوُ على ذلك، فذلكةً جامعةً تعمُّ ما تقدّم، وما يُمكِن أن يأتوا به في المستقبَل من شُكوكٍ، أوِ ادّعاءاتٍ كاذبةٍ، فكلّ ذلك مدحوضٌ بما جاء به من حُجَجٍ واضحة، تكشِف تُرّهاتِهم وكَذِبَهم وتناقضَهم[2]، فالآية موصولةٌ عطفًا على ما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]، فإنّ من عِلَل إنزاله مُفرّقًا تثبيت فؤاد الرّسول ﷺ، ثمّ عَطَف عليها عِلّةً أخرى لإنزاله مُفرّقًا، وهو أنّ الحقّ ﷻ يَرُدّ في كلّ مَرّةٍ على شُبُهاتِ المشركين، بما يَضربونه من أمثالٍ لإبطالِ أمرِ الرّسولِ، والقَدْحِ في القرآنِ، فهذه عِلّةٌ أُخرى لجهةِ إنزالِهِ مُفرّقًا[3].

معنى (لا) ودلالتُها في ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾:

تثبيتُ الرّسولِ ﷺ، وتيئيسُ الكافرين

استعملَ النّظمُ الكريمُ (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾؛ لأنّها تنفي المضارعَ في الاستقبالِ، وهو المُلائِمُ لتثبيتِ الرّسولِ ﷺ، وتيئيسِ الكافرين، على العكسِ من (ما) فإنّها تنفي المضارعَ في الحالِ، فما تُخلِصُ الفعلَ المضارعَ للحالِ، ولا تُخلِصُه للاستقبالِ، وعلى ذلك الأكثرون[4].

دلالةُ التّعبيرِ بالإتيانِ مادّةً وصيغةً:

غالِبُ حالِ الإتيانِ إذا استُعمِل مجازًا أن يدلَّ على ما يَسوءُ ويُكرَه

جاء بفعلِ الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾؛ لأنّ غالب حالِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 381.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(3) الإيجيّ، جامع البيان: 3/ 155.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 222.

إذا استُعمِل مجازًا دلّ على ما يسوءُ ويُكرَه، وجاء به مُضارِعًا ليشملَ ما كان في الزّمنِ الحاضرِ و"ما عسى أن يأتوا به مُستقبَلًا من هذا النّوعِ؛ كقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92]"[1].

لا يأتونَ بمَثَلٍ إلّا رُدِعَ بالحقِّ في تَحَدٍّ إلهيٍّ يُخرِسُ ألسنةَ المُشركين

عَودُ الضّمائرِ في ﴿يَأْتُونَكَ﴾ ودلالتُها:

الواو في قولِه تعالى: ﴿يَأْتُونَكَ﴾ ضميرٌ يعود على المُشركين[2]، أمّا الكافُ فضميرٌ يعودُ على الرّسول ﷺ في إشارة إلى أنّ المشركينَ لا يأتونَ بمَثَلٍ يضربونه لكَ في مخاصمتِكَ وإبطالِ أمرِك؛ إلّا جئناكَ بالحَقّ الصّريحِ الّذي تَردُّ به كيدَهم، وأحسنَ تفسيرًا من مَثَلِهم[3]؛ لأنّه يُزيلُ كلَّ شُبهةٍ، ويَردُّ كلَّ كيد.

قَصْدُ المشركين إفحامَ النّبيّ ﷺ وإثباتُ تفوّقِهم عليه

فائدةُ تَعديةِ فعلِ الإتيانِ بنفسِهِ:

القياسُ في فِعل الإتيان أن يكونَ مُتعدّيًا بالحرفِ؛ فيُقال: يأتون إليك، إلّا أنّه جعله مُتعدّيًا بنفسه في قوله تعالى: ﴿يَأْتُونَكَ﴾، فعدّاه إلى ضمير الرّسول محمّد ﷺ؛ لإفادة أنّ قصدَ المشركين من إتيانهم بالأمثال هو إفحامُ النّبيّ ﷺ، وإثباتُ تفوّقِهم عليه[4].

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِمَثَلٍ﴾:

الباء في قولِه تعالى: ﴿بِمَثَلٍ﴾ دالّةٌ على المُصاحَبة والمُلابَسة[5]، فهُم قد أَتَوا بما فيه معارَضةُ القرآن من أمثالهم، ومالوا إليها، ولابَسوا أحوالَها، وأصابَهم العُجْبُ منها؛ فرَدّ اللّهُ عليهم.

تعميمٌ لكلّ مَثَلٍ من أمثالِهم المُتقدِّمةِ

الغرضُ من تنكيرِ (مَثَل):

أوردَ لفظُ المَثَلِ مُنكّرًا في قولِه تعالى: ﴿بِمَثَلٍ﴾؛ لإفادة التّعميم؛ لأنّه وارِدٌ في سياق النّفي؛ فالنّكرة في سياق النّفي تَعُمّ أفرادَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 340.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 320.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(5) وهو من معاني الباء المُشتهَرة في لسان العرب، ينظر: ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.

جنسِها[1]، والتّقدير: بكلّ نوعِ مَثَلٍ ضربَه لكَ المشركون، ممّا تقدّم من أمثالهم؛ كقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ [الفرقان: 4]، وقولِهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: 5]، وقولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: 21]، وقولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، وغير ذلك[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ في قولِهِ: ﴿يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾:

فِعلُ الإتيانِ في أصلِه يدلّ على الحضورِ، لكنّه استعملَه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بمعنى الإظهار مجازًا، فهو نفيٌ أن يأتوا بشَبَهٍ لحالٍ من أحوالِك، قاصِدين إظهار أنّ حالَكَ بعيدُ الشَّبَهِ عن حال رسولٍ مُرسَلٍ منَ الله تعالى، وغرضُهم: نفيُ النّبوّة عنك؛ فأبطلَ الحقّ سبحانه ما أوردوه من تشبيهاتٍ، وأثبتَ لهم أنّ رسالةَ اللهِ تعالى لا تتطلّبُ الشّروطَ الّتي زعموها، ولا تُلازِمُها[3].

إبطالُ تشبيهاتِهم الفاسدةِ دَحْضٌ قاطعٌ لخطأ فهمِ الرّسالةِ الإلَهيّةِ

دلالةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ﴾ مُقتضيةٌ معنى الاستثناء، كما هو حالُها في كلام العرب[4]، وهو استثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ؛ لاتِّصاف الأمثالِ الّتي ضربوها بالعموم؛ ولِاندِراج المَثَل في سياق النَّكِرَة فيعمّ، وعمومُ الأشخاصِ يستلزمُ ضرورةً عمومَ الأحوالِ[5]، والاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ﴾ دالٌّ على التّفريغ، ومُؤْذِنٌ بالمُسارَعة إلى إبطالِ ما أتَوا به؛ تثبيتًا لفؤادِه ﷺ[6]، فكأنّه قال: لا يأتونك بمَثَل إلّا عاجلْناهم بردِّهِ، وأجودَ بيانًا وكشفًا لما كان من شُبُهاتِهم الباطلةِ.

استثناءٌ من أحوالٍ عامّةٍ تقتضيهِ عمومُ الأمثالِ

(1) ابن عقيل، المُساعِد على تسهيل الفوائدِ: 3/ 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(4) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 22.
(6) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 421.

بلاغةُ التّعبيرِ بالقَصْرِ، ونوعُهُ، وغرضُهُ:

التّعبيرُ بالنَّفي والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ فائدتُه القَصْر، وهو قَصْرٌ إضافيّ؛ فإنّهم لم يأتوا بمَثَلٍ أو سؤالٍ تَعنُّت إلّا كان الجوابُ عنه أن نأتيَهم بالحَقّ فيدمغَهُ، فإنّه قد يأتي الحقُّ في غير هذا الموضع، إلّا أنَّه لعِظَم مُرْتكبِهم، كأنّه جعل مجيءَ الحقِّ مقصورًا عليه؛ فهم "محجوجون في كلّ أوانٍ، مدفوعٌ قولُهم بكلّ وجهٍ، وعلى كلِّ حالةٍ"[1].

مَجيءُ الحقّ إبطالٌ لأمثلتهم؛ فهم مَحجوجون في الأحوالِ جميعًا

سِرّ العدولِ عنِ الإتيانِ إلى المجيءِ:

لَمّا ذُكِر فِعلُ المشركين عُبِّر عنه بالإتيان بقولِه: ﴿يَأْتُونَكَ﴾، ثمّ ذُكِر فِعلُ الحقِّ سبحانه، فعُبِّر عنه بالمَجيء بقوله: ﴿جِئْنَاكَ﴾، فغايرَ بينهما لسببيْن؛ الأوّل: هو التَّفنُّنُ في الكلام، والثّاني: أنّ استعمال فِعلِ الإتيان بطريق المَجاز يَكْثُر دوَرانُه فيما يَسوء ويُكرَه، كالوعيد ونحوه، خِلافًا لفعل المَجيء؛ فإنّ مَجازَه مُستعمَلٌ في وصول الخير والوعد والنّصر، وما عَظُم منَ الأشياء[2].

الإتيانُ نذيرُ سوءٍ، والمَجيءُ بشارةُ خيرٍ

غرضُ إسناد المَجيء إلى ضمير العَظَمة:

إسنادُ فعلِ المَجيء إلى ضمير العَظَمة (نا) في قوله: ﴿جِئْنَاكَ﴾؛ للدّلالة على عظمته سبحانه، وأنّه تعالى هو القادر على كلّ شيء، وأنّه لا يُمكن لأحدٍ أن يُعجزه، وأنّه هو المُنزِّل للقرآن الكريم، وأنّه هو القادر على تفسيرِه، وتوضيحِ معانيه، والإتيانِ بالحقّ المُبين.

إظهارُ عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه على الإتيان بالحقّ

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ في مجيءِ الحقِّ:

التّعبير بالمَجيء بالحقّ في قولِه تعالى: ﴿جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ من باب المَجاز، فإنّه تعالى مُنزَّه عنِ الحوادِث، لكنّه لَمّا كان الحقّ لا يمكن أن يكون جائيًا بنفسه، جيءَ به، وأراد أن يُصَوِّر المَشهدَ المُتحرّكَ منَ

حضورُ الحقِّ يُزلزِلُ شُبُهاتِ المُشركينَ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 86.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 22 - 23.

المجيء تصويرًا فريدًا؛ ليَشعرَ السّامعُ أبلغَ شعور، فكأنّ اللّهَ تعالى قد جاء بالحقّ لرَدّ شُبُهاتِهم، ولِقَلْع عُروقِ أسئلتِهم الشّنيعة من جُذورها، يجوز في معنى المَجيء في الآية أن يكون دالًّا على الظّهور والبيان؛ فلا يعارضونَكَ بشيءٍ "إلّا أظهَرْنا فيكَ ما يكشِفُ عن بُطلان ما أَتَوا به"[1]، فالمُراد من قوله تعالى: ﴿جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: أظهرناه لكَ في المَوضعِ والحالِ الَّذي كان من إتيانِهمُ الأمثالَ القادحةَ في نُبوّتِك، المُعارِضةَ لرسالتِكَ.

قَـدِمـنـا إلـيـكَ مُتلبّسين بالحقّ تَجليةً لـه على وجهِ التّوكيدِ

معنى الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

أُدخِل حرفُ الباء على لفظِ الحقِّ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على معنى المُلابَسة[2]؛ كنايةً عن حصول ذلك المَجيءِ تحقيقًا وتوكيدًا، ويجوز أن تكون الباءُ دالّةً على معنى (مِنْ) الَّتي تُفيد التّبعيض؛ والمعنى: (لا يأتي إليك يا محمّد ﷺ هؤلاءِ المُشركون بأيِّ مَثَلٍ يضربونه لك؛ ليَحْتجّوا به عليك، إلّا ونَرُدّ عليهم مِنَ الحقّ - أي: منَ القرآن الكريم - ما يُبطِل ما جاؤوا به، ويَدحَضُ حُجَجَهم)[3].

كـمـالٌ ثـابـتٌ يَـفـضـحُ زَيـفَ شُبُهاتِ المُبطِلين

معنى (أل) في قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ دالّةٌ على الكمالِ، وهو من معانيها[4]، وهو الحقيقةُ الثّابتةُ الَّتي لا تقبل الشّكَّ، أو التّكذيبَ، فلا أثبتَ منه، فيُرهق خُصومَه، وما أَتَوا به من شبهاتٍ وأضاليلَ، ويفضحُهم، ويُخْجِل قائلَهم وسامِعَهم[5].

إبـطـالٌ قـاطِـعٌ لـكـلِّ شُـبـهـةٍ بجوابٍ مُحِقٍّ

غرضُ الحذفِ في قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مجازٌ بالحَذف، فالحقُّ صفةٌ لموصوفٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 17.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 16.
(3) مكّي القيسيّ، الهداية: 8/ 5217.
(4) (أل) الكماليّة الَّتي تُفيد استغراق جميعِ خصائص الأفراد تجوُّزًا، مُبالَغةً في المَدح والذّمّ، يُنظر: فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 116.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 381.

محذوفٍ، ففي الجملة إبطالُ شُبُهات المشركين، وكشفُ زيفها؛ وذلك بأن يَرُدّ على أمثالِهم بالجواب الحقّ الثّابت، إنحاءً عليه بالإبطال، وحسمًا لمادَّة القيل والقال[1].

بلاغةُ المُقابَلة:

إذا جاء الحقُّ زهَقَ الباطلُ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ مُقابَلةٌ لطيفة[2] بين إتيانهم بالمَثل، ومجيئِه بالحقِّ سبحانه، فكلُّ نبيٍّ إذا قال له قومُه قولًا؛ كان هو الَّذي يَرُدُّ عليهم، ويَدحضُ حُجَجَهم، أمّا الرّسول الكريم محمّد ﷺ فكان إذا قال له المشركون شيئًا، فإنّ اللّه تعالى هو الَّذي يتكفَّل بالرّدّ عليهم[3]، وقابَلَ بين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، وهو مجيءٌ مَجازيٌّ، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ في إشارةٍ إلى أنّ ما يأتي به هؤلاءِ المشركون أمرٌ واضحُ البُطلان[4]، وأنّ نور الحقّ مُنتصِرٌ عليه لا محالةَ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَحْسَنَ﴾:

مهما جاؤوا من مَثَلٍ أتيناكَ بأفضَلَ ممّا جاؤوا حقًّا وتفسيرًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ دالّةٌ على العطف؛ لأنّه لَمّا كان التّقدير في الأصل: بأحقّ منه، عُطف عليه[5]؛ ليأتيَ بالأَفضلَيْن: أفضليَّةِ الحقّ، وأفضليَّة الحُسْن في التّفسير، فالحقُّ هو الأصل، وهو الَّذي يُبطل شبهةَ المشركين، والتّفسيرُ الحَسَنُ يُزيل كلَّ شبهةٍ، ويوضِّح كلَّ معنًى.

بلاغةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بِالْحَقِّ﴾:

التّفضيلُ يُفضي إلى وجهٍ منَ الحقيقة وهو مُنتفٍ عنهم

التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ دالّ في الأصل على التّفضيل،

(1) أبو السّعود، إرشادُ العقل السّليم: 6/ 216.
(2) المُقابَلة: وضع المعاني توفيقًا بين المتَّفِق منها والمختلِف، فتُقابِل كلًّا بمِثله، يُنظر: الرّاغب، أفانين البلاغة، ص: 177.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 538.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 22.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 381.

على تقدير: (بأحقّ منه)[1]، وآيةُ ذلك أنّه عُطِف عليه تفضيلٌ مثلُه، وهو قوله: ﴿وَأَحْسَنَ﴾، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول: ولا يأتون بمَثَلٍ إلّا جئناك بما هو أحقُّ وأفضلُ من أيّ شيءٍ آخَر ممّا أتَوا، وإنّما عَبّر بالحقّ؛ لئَلّا يُفْهَم أنّ ما يأتون به هو وجهٌ في الحقيقة[2]، لِما في صيغة التّفضيل من توافُر المعنى والمَضمون في المُفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه، مع تفاوُتِ المَنزلة.

دلالةُ التّعبير بـ﴿وَأَحْسَنَ﴾ مادّةً وصيغةً:

بـيـانٌ مـبـينٌ وظـهـورٌ جـليٌّ لكلامِ اللهِ تعالى

التّعبيرُ بصيغةِ التّفضيل (أفعَل) في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ لأجْلِ ما فيه منَ المَزيَّة في البيانِ؛ وهو إيضاحُ المُراد منَ الكلام، وإزالةُ اللّبس عنه، والظّهورُ؛ وهو وضوح المعنى وعدمُ خفائه؛ لأنّ التّفسير هو الكشف عمّا يدلُّ عليه الكلام[3]، وكونُه (أحسنَ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ لأنّه حقيقٌ في الاستدلالِ، فالتّفضيل خارجٌ عن بابه؛ فليس لهم تفسير للحقيقة حتّى يكون القرآنُ أحسنَ منه[4]، لكنّه سيقَ مَساقَ المُبالَغة؛ لأنّ حجّتهم لا تشتمل على أدنى حُسْن[5]، والتّعبيرُ بالتّفضيل قد يوهِم ذلك، ويجوز أن يكون التّفضيل في قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ قائمًا على حقيقته، بأنْ يكون المُراد منه إيهامَ النّاس ببَهْرجة سَفْسَطتِهم وشُبَهِهم؛ فيكون التّفسير والكشف عنِ الحقّ هنا أحسنَ وقعًا في نفوسِ السّامعين من مغالطاتهم[6]، واستَعمل لفظة التّفسير بصيغة التّنكيرِ؛ لِما يُفيده التّنكيرُ منَ التّعظيم؛ والمعنى: أنّ الحقّ ﷻ يريد أن يُعظّم شأنَ التّفسير الّذي يُقدّمه للرّسول ﷺ في مُحاجَجَة المشركين، فهو نورٌ وهدًى للمؤمنين.

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 25.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 13/ 381.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 457.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5277.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 23.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 23.

سِرُّ التّقييدِ بالتّمييز: ﴿تَفْسِيرًا﴾:

تـفـسـيرُ الـحـقِّ سـبـحـانـه لا يعدِلُه تفسيرٌ

التّفسير في قولِه تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ واقعٌ موقعَ النّصب على التّمييز، ومعناه: تفسيرًا أفضلَ من تفسيرهم، وتفصيلًا أجودَ من تفصيلهم، وحُذِف حرفُ الجَرّ (مِن) للعِلْم به، فعُلِم أنّ المُراد هو المفاضَلةُ بين تفسيرِ اللّه تعالى، وتفسيرِ المُشركين، ويُشير استعمالُ التّفسير هنا إلى كشف المعنى الحقيقيّ لِما ضربوه مثلًا؛ فغَطّى على الفَهم بسبب ذلك الَّذي خَيَّلوا به، وادّعوا أنّهم أوضحوا به وجهًا من وجوه المَطاعِن في الدّين، فجزمَ أكثرُ السّامعين بحُسْنه[1]؛ لأنّه كشفَ لهم عنِ الحقيقة الَّتي أخفاها المشركون بتفسيراتهم الخاطئةِ الضّالّةِ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ في قولِهِ: ﴿تَفْسِيرًا﴾:

وضْـعُ السّـبـبِ - وهـو التّـفـسـير - موضِعَ المُسَبَّب؛ وهـــو المـعـنـى والمُؤدَّى

التّعبيرُ بالتّفسيرِ من باب المَجازِ المُرسَلِ[2] بوضع السّببِ موضعَ المُسبَّب؛ لأنّ معنى التّفسير هو الكشفُ والبيان، وهو سبب ظهور المعنى، لكنّه وُضِع موضعَ المعنى والمُؤدَّى؛ أيْ: أحسن معنًى وأجود مُؤدًّى من سؤالهم؛ فهو مَجاز؛ لأنّ المُرادَ هو المعنى والمُؤدّى، لا الكشفُ عنه، فضلًا عمّا فيه منَ المُبالَغة والإيجاز[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَجيءُ والإتيانُ:

إتـيـانُـهـم بالمَثَل لمُعارَضة الدّين والـقـرآنِ سهلٌ يسيرٌ؛ لأنّـه من غـيـر حُـجّـة ولا دليل

الإتيان في اللّغة: هو المَجيء بسهولة، أمّا المَجيء فيَدلّ على الحصول والتّحقُّق[4]، ولَمّا كان هذا هو الفرق بين الإتيان والمَجيء؛ عبّر بالإتيان للإشعار بأنّ إتيانَهم بالمَثَل لمُعارَضة الدّين والقرآن سهلٌ يَسيرٌ عندهم، وأنّه ليس بينهم وبين إطلاقه إلّا ألسنتُهم من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 381.
(2) "وهو ما كانت العلاقة بين ما استُعمِل فيه وما وُضع له مُلابِسةً غيرَ التّشبيه"، يُنظر: الصّعيديّ، بُغية الإيضاح: 3/ 462 - 463.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 229.
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (أتى).

غير حُجّةٍ ولا دليلٍ، فإنّهم لا يتورّعون عنِ ارتكاب المعاصي دونَ أيِّ رادعٍ من ضميرٍ أو إيمانٍ، أمّا مجيئُه تعالى بالحقّ؛ فإنّه مُتحقِّق الحصول لا محالةَ.

التّفسيرُ والتّأويلُ:

التّفسيرُ والتّأويلُ: كشفُ المُغلَق منَ المُرادِ بلفظِه، والتّأويلُ: جمعٌ لمعانٍ مُشكِلةٍ بلفظٍ واضحٍ

التّفسيرُ في اللّغةِ راجع إلى معنى الإظهار والكشْف، والفَسْر: الإبانة وكشفُ المُغطّى، كالتّفسير، وقد فسَرْت الشَّيء أَفْسِرُهُ فسْرًا[1]، قال الرّاغب: "الفَسْر: إظهارُ المعنى المعقول، والتّفسير في المبالَغة كالفَسْر، والتّفسير قد يُقال فيما يَختصّ بمُفردات الألفاظ وغريبِها، وفيما يَختصّ بالتَّأويل"[2]، فالتّفسير: كشْف المُغلَق منَ المُراد بلفظه، وإطلاقٌ للمحتبِس عنِ الفهم به[3].

والتّأويل: من "أول"؛ ويدلُّ على معنى الرّجوع، وهي ترجع إلى أصلَيْن: ابتداءُ الأمر، وانتهاؤه، وآلَ يَؤول؛ أيْ: رجع، وأَوَّل الشّيءَ إلى أهلِه؛ أيْ: أَرْجَعه ورَدَّه إليهم، وأَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله: دَبَّره وقَدَّره وفَسَّره، فالتَّأويل: تفعيل مِن أَوَّل يُؤَوِّل تأْويلًا؛ أيْ: تفسير ما يَؤولُ إليه الشّيءُ، وأُلْتُ الشّيءَ أَؤوّله: إذا جمعتَه وأَصلحتَه، وأَوَّلَ اللّهُ عليك أمركَ؛ أيْ: جَمَعَه؛ فكأنَّ التّأويلَ هو جمعٌ لمعانٍ مُشكِلةٍ بلفظٍ واضحٍ لا إشكالَ فيه[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، الجوهريّ، الصّحاح: (فسر).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (فسر).
(3) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 147.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أول).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»